الإيمانُ الدينيّ من دون دليل[1]

ويليام جاي وُود[2]

الإبستمولوجيا المستَصلَحَة

الإبستمولوجيا المستَصلَحَة[3] التي طرَحَها ألفين بلانتينغا هي «مُستَصلَحة» بمعنيَين على الأقل: لم يقم بلانتينغا فقط بتلقُّف الإشارات التلميحية من بعض قادة حركة الإصلاح في رفضه لمشروع اللاهوت الطبيعي، بل أرادَ أيضًا أن يُصلِح بعضَ أبعادِ التفكير التي شكّلتْ بُنية الجدالات حولَ الطابع المنطقيّ للإيمان بالله. يدّعي مُناصرو النظرية الدليلية[4] أنّ قواعد السلوك الفكريّ الجيّد تقتضي أن تكون المعتقدات الدينية مدعومةً بدليل نرى قوّته الإثباتية ونُقدِّرها. وفقًا لهذا الرأي، يقعُ العبء على المؤمنين المتديِّنين كي يُقدِّموا الدليل الذي يُثبت أنّ وجودَ الله هو حقّ، وإن فشلوا في ذلك أن يُثبتوا أنّ وجوده هو عالي الاحتمال. وفقًا لعلماء الإبستمولوجيا المستَصلَحَة، هذا المقتضى بالذات –أن

1. Wood, William Jay. “Religious Belief without Evidence.” In: Wood, W. Jay, God (Central Problems of Philosophy), Series Editor: John Shand, New York: Routledge, 2011, 133-154. .

٢. أستاذ الفلسفة في كلية ويتون (Wheaton College).

3. reformed epistemology

4. evidentialists

تنالَ جميعُ المعتقدات تبريرَها عبر الدعم الدليلي أو الاحتجاجي[1] - هي ما ينبغي رفضُه. لكي نُقدِّرَ حجّة بلانتينغا والطريقة التي أرادَ من خلالها إصلاحَ التطبيق الإبستمولوجي، ينبغي أن ننظر بإيجازٍ شديدٍ إلى جدليةٍ تقعُ ضمن الحقل الأعمّ للإبستمولوجيا: الجدلية بين أنصار الداخليانية الإبستمولوجية وأنصار الخارجيانية الإبستمولوجية.

يُعبِّرُ شرط أنصار النظرية الدليلية -الذي ينصُّ على ضرورة أن تنالَ جميعُ المعتقدات المبرَّرة دعمَها من الدليل القَضَوي[2] الذي نعي قوّته- عن نظرةٍ أعمّ في حقل الإبستمولوجيا تُسمّى «الداخليانية[3]». رغم وجود أنواعٍ من الداخليانية، الفكرة الجوهرية هي أنّ التبرير الإبستمولوجي يتسلزمُ أنْ يحظى الفاعلون -كيفما كان من حيث المبدأ- بإمكانية الوصول إلى أُسُس مُعتقدهم. عادةً ما يحظى الفردُ بإمكانية الوصول إلى الأسس من خلال التأمُّل الداخليّ، أي عبر التوجُّه إلى الباطن إن صحّ التعبير واستجلاء أفكار العقل. لو سألتكَ لماذا تعتقدُ أنّ سُوقَ الأسهم سوف يعودُ إلى حالته الطبيعية بعد الخسائر الأخيرة، فإنّك قد تُفكّر للحظة ومن ثمّ تذكرُ الانخفاض الطفيف في مُعدَّل البطالة، والاندفاع في الطلبيات على السلع المعمِّرة، ووجود توازن تجاري أنفع خلال الربع الأخير في مقابل المنافسين الاقتصاديّين، وما إلى ذلك. أنتَ تُظهِرُ بهذه الطريقة لأيِّ شخصٍ يسألُ عن مُعتقدك أو يتحدّاه أنّ لديك أسبابًا تدعمُ ذلك المعتقد بوضوح. بما أنّ هذا الشرط يتّصلُ بالمعتقدات الدينية، ينبغي أن يكونَ المؤمنون أيضًا قادرين على توجيه النظر نحو أُسُس إيمانهم بالله، وهذا الشرط يُفضي إلى الاحتجاجات على وجود الله وإلى المشروع العام للاهوت الطبيعي.

---

1. argumentative
2. propositional evidence
3. internalism

رُغم ذلك، فإنّ الشرط الذي يقتضي أن تتمتّع جميعُ المعتقدات المنطقية بالدعم المقدَّم من الأسباب والاحتجاجات التي نرى قوّتها ونُقدّرها هو أمرٌ مثيرٌ للجدل للغاية. لأحد الأسباب، يبدو وكأنّما ثمّة العديد من المعتقدات التي نَعتبرُ أنّنا عقلانيين تمامًا في قبولها ولكن نفتقدُ للدعم الاحتجاجي بحقّها. يعتقدُ أغلبُنا بوجود عالَمٍ خارجيٍ وبأنّ هذا الاعتقاد ليسَ وهمًا قد فرضته علينا قوةٌ شيطانية خبيثة. ما هو الدليل الذي يُمكن أن نحشده دعمًا لهذا الاعتقاد ولا يكمنُ أصله في الخداع الشيطاني؟ يعتقدُ أغلبنا أنّ قابلياتنا الحسيّة هي أدلّاء موثوقة تُرشدنا نحو حقائق العالَم الخارجي، رُغم أنّنا نفتقدُ للأسباب غير الدائرية للاعتقاد بهذا. نحنُ نؤمنُ بموثوقية الاستنتاج الاستقرائي واتّساق قوانين الطبيعة رُغم أنّ أغلب الناس لا يُمكنهم أن يستحضروا احتجاجاتٍ دعمًا لهذه المعتقدات (ومن المشكوك به أن تكون قد نجحتْ الجهودُ الفلسفية الرامية لذلك). نحنُ نعتقدُ أنّه إذا كان (أ) = (ب)، و(ب) = (ج)، فإنّ (أ) = (ج)، ولكن لا يبتني اعتقادنا هذا على امتلاكنا لحجّةٍ تدعمه. نحنُ نعتقدُ أنّه من الخطأ أن نُلحِقَ الألم غير اللازم بالآخرين ولكن ليسَ لأنّه قد تحتّمَ علينا أولًا تقديمُ الأدلّة أو جمع المعطيات التجريبية لدعم هذا الاعتقاد. هذه مُعتقداتٌ نعتبرها «أساسية بشكل صحيح»[1]، أي إنّ الاعتقاد بها مُبرَّر عند غياب الأسباب والاحتجاجات التي تؤازرها. باختصار، يبدو أنّه يوجدُ عددٌ كبيرٌ من الاستثناءات على مُقتضى الداخليانية.

تُواجِهُ الداخليانية صعوباتٍ إضافية. أغلبُ الناس –وبالطبع ليس الأطفال– هم غير مؤهلّين لكي يُقدِّموا الأسباب والاحتجاجات على الأمور التي يؤمنون

1. properly basic

بهـا. هذا يعني أنّ أغلب النـاس هم غير مُبرَّرين في أغلب مـا يؤمنون به. لعلّ بعض الفلاسفة فقط -وهذا موضوعٌ تختلفُ عليه العقول المنطقية- يُمكنهم أن يُلبّوا مطالب الداخليانية بحقّ كلّ ما يؤمنون به. هذا يحتكُّ سلبًا بقناعاتنا المنبثِقة من الإدرك السـليم التي تُفيدُ أنّ أغلب الناس هم مُبرّرون في أغلب ما يؤمنون بـه. إذا كان أغلبُ المؤمنين غير قادرين على اسـتحضار الأدلّة والاحتجاجات لصالـح المعتقدات الأولية حـول العالَم الطبيعي، كم سـتكونُ درجة الصعوبة أشـدّ في اسـتحضار هكذا أدلّة حينما نتعاملُ مع الأشياء الخارِقة للطبيعة؟ حتّى أكويناس نفسـه، عالِم اللاهوت الطبيعـي البارز، كان يعتقـدُ أنّ أغلبَ الناس يفتقـدون للوقت والتدريب والكفاءة التي تُخوِّلهم تقديمَ الاحتجاجات لصالح وجود الله. بالفعل، علّق أكويناس: «إذا كان الطريق الوحيد المفتوح أمامنا لمعرفة الله هو فقط طريق المنطق، سوف يبقى الجنس البشري في أحلك ظلال الجهل»[1].

دفعتْ المشاكل التي تعتري الداخليانية الإبستمولوجية العديدَ من المفكّرين إلى تبنّي الخارجيانية الإبستمولوجية،[2] وهي نظرةٌ حول التبرير الإبستمولوجي تتخـلّى عـن شرط الوصول الذي تتّسـمُ بـه الآراء الداخليانية. يعتقـدُ أنصارُ النظرية الخارجيانية أنّ تبرير المعتقَد يعتمدُ على نَسَـبه السـببي، على «الموثوقية» أو «الأداء المناسـب»[3] أو «الأداء الفضيل»[4] للقابليات المعرفية المسـؤولة سببيًا عن إنتاج مُعتقَدٍ ما. إذا كانت تعملُ قابلياتنا المعرفية بشـكلٍ صحيح في بيئةٍ غير خادِعـة تتلائمُ معها، فهي تحظى إذًا باحتمالٍ إحصائيٍ عالٍ بأن تَنقلَ إلينا حقائق

1. Aquinas, Summa contra Gentiles, I.4.4 (p. 67).

2. epistemological externalism

3. proper functioning

4. virtuous functioning

مُتّصلة بنطاق مداها. خُذ على سبيل المثال التجارب الإدراكية البسيطة التي قد تستشعرها حيال وجود تُفاحة. حينما تنظرُ إلى التفاحة أو تشمّها أو تستذوقها، فإنّك تُشكِّلُ على نحوٍ فوري وتلقائي وغير استنتاجي الاعتقاد بأنّك تُدركُ أنّها تُفاحة. أنتَ لا تُطبّق استدلالًا كالاستدلال التالي للوصول إلى هذا المعتقد: يَظهرُ أمامي شيء أحمر، ودائري، وصلب، وحلو المذاق، وطيّب الرائحة له صفة التفاح الذي قد تناولته في الماضي. ليس لديّ سببٌ كي أفترضَ أنّ هذا الشيء هو تقليدٌ ذكيٌ للتفاح، أو كي أفترضَ أنّني تناولتُ عقاقير تُثيرُ الهلوسات حول التفاح، أو كي أفترض أنّني ضحية تعيسة لإيحاء نفسي وقعَ بعد إجراءٍ مغنطيسي أو لنوعٍ من التحايُل أو الخداع، وبالتالي أعتقدُ بوجود تفاحة أمامي. لا يُقدِّمُ الإنسانُ أسبابًا لأغلب المعتقدات الإدراكية، بل يقومُ ببساطةٍ بتشكيل المعتقد ردًّا على النوع المناسب من الحافز التجريبي. افترِض أنّك سألتني أينَ تركتُ مفاتيح سيارتي وأجبتكُ دون تردُّد: «هي موجودة على خزانتي في المنزل». لم يتشكّل هذا الاعتقاد المبنيّ على الذاكرة على أساس قيامي أولًا بجمع الأدلّة والاحتجاجات، بل أثاره ببساطةٍ حافزٌ تجريبي وهو في هذه الحالة سؤالك عن مكان المفاتيح وانطباعي الذاكرتي الحيوي. إذا عملتْ ذاكرتي بشكلٍ صحيح، سوف أكونُ مُبرَّرًا إذًا في اعتقادي المتعلّق بالمفاتيح. لا يشترط أنصارُ النظرية الخارجيانية أن نكون واعين أو مُمتلكين للمعتقدات المبرَّرة حول عمل قابلياتنا بشكلٍ موثوق. كما أنّ أعضائي الداخلية يُمكنُ أن تعمل بشكلٍ سليم فأتمتّع بالصحّة من دون وعيٍ منّي، كذلك يُمكنُ لقابلياتي المعرفية أن تعمل بشكلٍ سليم لكي تُنتج الاعتقاد المبرَّر من دون وعيٍ منّي. المطلوب فقط هو عملها بنحوٍ موثوق وليس امتلاكي للمعتقدات المتعلّقة بذلك.

وصلنا الآن إلى موقع التعمُّق في الاعتراضات التي وجّهها بلانتينغا على

المقتضى التابع لأنصار النظرية الدليلية والذي يستلزمُ أن يدعم المؤمنون إيمانَهم بالله باحتجاجاتٍ أو أدلّةٍ قَضَوية. إذا كان أنصارُ النظرية الخارجيانية مُحقّين، فإنّ جميعنا نقبلُ بكثيرٍ من مُعتقداتنا من دون أن نكون قد جمعنا أولًا أدلةً قَضَوية داعِمة بحقّها. يكفي في تبريرهم أن تكون هذه المعتقدات قد أُنتِجت من قِبل قوانا المعرفية في بيئاتٍ مُلائمة بطريقةٍ تؤدّي إلى الحقيقة. نحن نعتبرُ أنّ منتجات هذه القابليات هي أساسية، وأنّها مُبرَّرة من دون الدعم الاحتجاجي. ولكن إذا كان يُمكن القبول بالمعتقدات الإدراكية والذاكرية، من بين غيرها، على أنّها أساسية، فلماذا إذًا لا يُمكن أن يُقبَل الاعتقاد بوجود الله بالطريقة نفسها؟ يقعُ في صميم رفض بلانتينغا للنظرية الدليلية دفاعُه عن الفكرة التي تُفيدُ أنّ المعتقدات الإيمانية التي يحملها الفرد –وهي معتقداتٌ من قبيل أنّ الله يواسيني أو أنّ الله قد خلقَ كلّ شيء– هي أساسية في الظروف الصحيحة[1].

إذا كانت المعتقدات البصرية الأساسية تُنتَج عبر القدرة البصرية الجذرية، وإذا كانت المعتقدات الذاكرية الأساسية تُنتَج عبر القدرة الجذرية على التذكر، فأيُّ قدرة إذًا تُنتِجُ المعتقدات الإيمانية؟ حينما ادّعى مُصلحون من أمثال جون كالفن[2] أنّ الإيمان بالله لا يتمُّ تبريرُه عبر الاحتجاج، لم يقصدوا أنّ الإيمان قد ظهرَ إلى الوجود من العدم وأنّه لم يتمتّع بظروفٍ تبريرية. اعتقدَ كالفن، وبلانتينغا من بعده، أنّ جُزءًا من مخزوننا الكليّ من القوى المعرفية هو ما أطلقَ عليه كالفن تسمية الحسّ الإلهي[3]، وهو جزءٌ طبيعيٌ من موهبتنا الفكرية التي يتمتّعُ بها جميعُ البشر. حينما يُثار هذا الحسّ الإلهي عبر ظروفٍ مُتنوِّعة في بيئاتٍ مُناسِبة، فهو يقودنا إلى القبول بالمعتقدات الإيمانية بالطريقة الأساسية.

1. Plantinga, “Reason and Belief in God”, 73 ff.

2. John Calvin

3. sensus devinitatis

«لقــد خلقَنَا الله على نحــوٍ أنّنا نملكُ الميلَ أو النزعة لكــي نرى يدَه في العالَم من حولنا. بنحوٍ أدق، يكمنُ في داخلنا ميلٌ للاعتقاد بالقضايا على نحو: «خلق الله هذه الزهرة»، أو «خلقَ الله هذا الكون الواسع المعقّد» حينما نتأمّلُ في الزهرة ونُشاهد السماء المرصّعة بالنجوم أو نُفكّر في الفضاءات الشاسعة للكون.»[1]

وعليه، أن يُقال بأنّ الإيمان بالله هو أساسيٌ بشكل صحيح لا يعني أن يُقال إنّه بلا مبنى، وأنّ إنتاجَه مُستقلٌ عن البواعث التجريبية والقوى المعرفية التي تعملُ بمقتضاها هذه البواعث. بالطريقة عينها التي تنشأ المعتقداتُ الحسيّة والذاكرتية مــن البواعث التجريبية التي تعملُ بمقتضى القالبيات الفكرية، كذلك أيضًا يتمُّ إنتاجُ الإيمان الأساسي بالله. يقولُ بلانتينغا إنّ البواعث التي تؤدّي إلى الوعي بالله تتضمّنُ أيضًا التجارب كـ«الشعور بوجود الله» أو «الخوف، الشعور بالامتنان، البهجة، الحماقة، الغضب، السرور، وما شابه»[2].

لاحِــظ أنّه لا يتــمُّ هنا توظيف تجربة رؤية الســماء المرصَّعــة بالنجوم فوقنا كافتراضٍ لإنشاء دليلٍ مبنيّ على النظام (رُغم أنّه يُمكن أن يُستخدَم بهذا النحو وقد اســتُخدِم كذلك فعلًا). ذلك يعني استنساخ الاستدلال الاستنتاجي لعالِم اللاهوت الطبيعي. عوضًا عن ذلك، يُحــالُ إلى التجربة نظرًا إلى قوّتها العاطفية والنفســية بهدف إثارة مُعتَقد أساسيٍ عبر القابلية الفكريّة المتمثِّلة بالحسّ الإلهي والتي غايتها هي تمكيننا من امتلاك مُعتقداتٍ حقيقية عن الله. حتّى إيمانويل كانط الذي أنكرَ قوة العقل في إثبات وجود الله قد اعترفَ بالقوّة النفسية للتجارب من قبيل النظر إلى السماء المرصّعة بالنجوم:

1. Ibid, 80.

2. Plantinga, Warranted Christian Belief, 80.

«لكــنّ هذه المعرفــة [بالطبيعة] تعــودُ فتؤثِّر بدورها عــلى علّتها، أعني على الفكرة التي أدّت إليها، وتزيدُ الإيمانَ بصانعٍ أســمى إلى حدٍّ جعله قناعةً لا نزاعَ فيها. لذلك، لن يكون الأمر غير مريح فحســب، بل ســيكون عبثيًا تمامًا محاولة تقليص ســلطة هذه الحجة بأي شكل من الأشكال. فالعقل الذي يُعلى شأنه بلا انقطاع بحججٍ بهذه القوّة، والتي تتزايدُ باســتمرارٍ بين يديه، على الرغم من أنها تجريبية، لا يُمكن أن يحطّ من قيمته شــكٌّ ناشــئٌ عن تأمُّلٍ نظري حاذق ومجرد، إنّه لا يجوز أن يُنتَشــل من كلّ تردّد سفســطائي، وكأنّه يُنتشل من حلم نوعًا ما، بواسطة نظرةٍ يُلقيها على عجائب الطبيعة وعلى جلال بناء الكون، لكي يرتفعَ من عظمةٍ إلى عظمة إلى أن يصل إلى العظمة الأعلى، من المشروط إلى شرطه، وصولًا إلى الصانع الأخير غير المشروط (لكل الموجودات المشروطة)»[1].

رُغم أنّ كانط يتحدّثُ عن أنّ السماء تُوفِّرُ الدليل، يبدو أيضًا أنّه مُدركٌ لقوّة هذه التجارب في إنتاج مُعتقَد تلقائي وفوري وغير اســتنتاجي، وهو ما يُســمّيه بلانتينغا اعتقادًا أساسيًا. يبدو أنّ الفيلسوف البراغماتي الأمريكي تشارلز ساندرز بير[2] له رأيٌ شبيهٌ برأي كانط. قارِن هذا الاقتباس التالي مع اقتباس كانط:

«ينظرُ الإنسان إلى الطبيعة ويرى سموّها وجمالَها، فترتفع روحُه تدريجيًا نحو فكرة الله. إنّه لا يرى الألوهية، ولا تُثبِتُ له الطبعية وجودَ ذلك الكائن، ولكنّها تُثيرُ ذهنه وخياله حتّى تُصبِح الفكرة مُتجذِّرة في قلبه»[3].

وعليه، يبدو أنّ كُلاًّ من كانط وبيرس يؤكِّدان على ادّعاء كالفن (وبلانتينغا)

1. Kant, The Critique of Pure Reason, A624/B652 (p. 520).

2. Charles Sanders Pierce

٣. منقول في: Plantinga, Warranted Christian Belief, 174 n.10.

بأنّنا نملكُ ميلًا أصليًا بحيث يأخذ تفكيرنا انعطافةً «باتّجاه الإله»[1] استجابةً للظروف التحفيزية الملائمة عوضًا عن أن يكون استجابةً لحجّةٍ ما.

من المهم أيضًا أن نذكر أنّ التبرير الذي يمنح الشروطَ للمعتقدات الإدراكية والتذكرية والإيمانية هو تبريرٌ في بادئ النظر[2]. يُمكنُ أن يتمّ إبطال قناعتي بأنّ مفاتيح سيارتي هي موجودة على خزانتي في المنزل -وهي قناعة قابلة للتبرير حصلَتْ بطريقةٍ أساسية - إذا اتّصلتْ زوجتي على سبيل المثال بي هاتفيًا وقالتْ إنّها تنظرُ إلى أعلى خزانتي ولاحظت أن المفاتيح غير موجودة عليها. (لعلّه قد يحصلُ أيضًا أن يتمّ إلحاق الهزيمة بالعامل الهازم الذي تسبّبت به زوجتي بحقّ معتقدي المبنيّ على الذاكرة. لعلّ مفاتيحي هي موجودة فعلًا على الخزانة، ولكن لم تلتفت زوجتي إلى أنّها مخفية تحت زوجٍ من الجوارب.) المعتقداتُ الدينية التي تُؤخَذ على أنّها أساسية هي أيضًا قابلة للإبطال، ربما من قِبل حجّةٍ قويةٍ مبنيّة على إشكالية وقوع المعاناة في العالَم. يعترفُ بلانتينغا أيضًا أنّه كما أنّ بصر الإنسان أو ذاكرته قد يتعرّضا للضرر أو للخلل الوظيفي، قد يتعرّض الحسّ الإلهي أيضًا للخلل الوظيفي ربّما كنتيجةٍ للتواجد في بيئةٍ ثقافية تقمعه أو تُخمده[3].

في ثُلاثيته الجليلة المتمحورة حول التسويغ، صقلَ بلانتينغا بيانَه حول الإيمان بالله باعتباره أساسي. وضّح بلانتينغا أنّ المصطلح الرئيسي للتقييم الإبستميّ الإيجابي الذي تملكه المعتقدات الأساسية هو «التسويغ» وليس التبرير. التسويغ هو تلك الصفة التي إن أُضيفتْ بنحو كافٍ إلى اعتقادٍ صحيحٍ فإنّها تجعلُ ذلك الاعتقاد الصحيح مصداقًا للمعرفة. صقلَ بلانتينغا الشروط التي ينبغي أن

1. God-ward

2. prima facie

3. Ibid, 173 ، n.9.

يُلبّيها الاعتقاد الأساسي لكي يكونَ مُسوَّغًا. يجب: ١) أن تُنتجه القدرات المعرفية العامِلة بشكلٍ سليم والتي وظيفتها إنتاجُ المعتقدات الصحيحة، وهو ما تفعله بنحوٍ موثوق؛ ٢) في بيئة معرفية متجانسة وغير خادعة تناسب القدرات المعرفية للفرد؛ ٣) حيث تكون درجة الضمان نتيجة لميل الفرد إلى تصديق القضية المعنية عندما تنتجها ملكات تعمل بشكل صحيح[1].

تقييمُ الإبستمولوجيا المستَصلَحَة التابعة لبلانتينغا

من بين أولى الاعتراضات التي يُحتملُ أن يتمّ توجيهها نحو ادّعاء بلانتينغا المتعلِّق بإمكانية تسويغ الإيمان بالله على أنّه أساسيٌّ هو عدم وجود إجماع في المجتمع الفلسفيّ حول كون الحسّ الإلهي جُزءًا من قابلياتنا المعرفية الاعتيادية. في الواقع، سوف يأخذُ الملحدون واللاأدريون من دون شكٍ موقفًا أقوى بأن لا وجودَ لهكذا قابلية. كما رأينا، فإن مسألة ما هي القدرات العقلية التي يمتلكها البشر تظل موضوعًا دائمًا للخلاف الفلسفيّ. لا نزاعَ تقريبًا حول قابلياتنا الإدراكية لأنّها تتّصلُ بالأعضاء البارزة في الوجه. ولكن ماذا عن التأمل الداخلي[2] والحدس السابق على التجربة[3]؟ لا تفشلُ هذه القابليات الفكرية المعترَف بها عمومًا في أن يتمّ ربطُها مع الأعضاء الواضحة في الوجه فحسب، بل ليس من الواضح أن تكون متطابقة أو حتّى متّصلة سببيًا بالنشاط الحاصل في منطقةٍ مُحدّدة من الدماغ. كما ذُكر في المقدّمة، ماهية القوى المعرفية التي نملكها ودرجة كونها مؤديّة إلى الحقيقة هو أمرٌ مُتنازَعٌ حوله. تفادى أفلاطون وديكارت

1. Plantinga, Warrant and Proper Function, 46-47.

2. introspection

3. a priori intuition

الإدراك الحسيّ كمصدرٍ للمعرفة بينما تبنّى العلماء التجريبيون البريطانيون الرأيَ المعاكِس. كان جون لوك حذِرًا من الشهادة كمصدرٍ للمعرفة يُعوَّلُ عليه، ولكنّ ثوماس ريد اعتقدَ أنّ جميع البشر الطبيعيّين قد وُهِبوا ميلًا إلى سُرعة التصديق يُحرِّكهم نحو قبول الشهادة. اعتقدَ ريد أيضًا أنّنا نمتلكُ حسًّا جماليًا أصليًا نستطيعُ من خلاله تحديدَ الجمال وتقديره، إلا أنّ آخرين رفضوا وجودَ هذه القابلية بشدّة. اعتقدَ أكويناس أنّ البشر يملكون ضميرًا أخلاقيًا إلا أنّ برتراند راسل اعتقدَ خلاف ذلك. وهلمّ جرًّا. أمّا فيما يتعلّقُ ببلانتينغا، فأن يُقال له بأنّ فلاسفة آخرون يُعارضون دعوى امتلاكنا للحسّ الإلهي فهذا يضعه وسط صحبةٍ جيّدة جدًا، ولا يُشكِّلُ بحدّ ذاته اعتراضًا مُقنعًا على آرائه.

الأمر الأكثر إثارةً للقلق من امتلاكنا للحسّ الإلهي هو السؤال المتعلِّق حول شروط عمله بشكلٍ سليم. يقعُ في الموضع المركزي من إبستمولوجيا بلانتينغا الادّعاء بأنّ الاعتقاد الأساسي يكونُ مُسوّغًا إذا -من بين الشروط الأخرى- نشأَ من نشاط قابليةٍ تعملُ بشكلٍ سليم. ولكن ما هي شروط عمل الحسّ الإلهي بنحوٍ سليم؟ لم يُقدِّم بلانتينغا ولا كالفن من قَبله الكثيرَ من التفاصيل. لقد قيل لنا، كما لاحظنا من قبل، أنّ الحسّ الإلهي يقعُ عُرضةً للخلل الوظيفي. ولكن ما هو الذي يجعله ينحرفُ عن المسار الصحيح بالتحديد؟ الجواب القصير، يقولُ بلانتينغا، هو الإرادة المتمرِّدة، القلب الفاسد- بكلمةٍ واحدة: «الذنب». من المرجّح أنّ هذه الإجابة سوفَ تنعمُ بالحظوة فقط عند الأفراد المقتنعين مُسبقًا بالدِّين اليهودي/ المسيحي، وهذا لا يتمتّع بكثيرٍ من الفائدة الجدلية. أُخبِرنا أيضًا أنّ العمل السليم للحسّ الإلهي يعتمدُ على تغذيته بشكلٍ مناسب وأنّه، علاوة على ذلك، عُرضة للخل الوظيفي بسبب عيش الإنسان وسْطَ ثقافةٍ تكبتُ تطوّر

الحسّ الإلهي. حتّى مع هذه المؤهّلات، تبقى حدود الحسّ الإلهي العامِلة بشكلٍ سليم غير واضحة. افترِض على سبيل المثال أنّ أحدهم نظر إلى السماء المرصّعة بالنجوم في الأعلى ووجدَ نفسه مؤمنًا بطريقةٍ فورية وتلقائية وغير استنتاجية أنّ غايا أو براهمان قد خلقَ كلَّ هذا. هل تكونُ هذه المعتقدات نتاجًا للحسّ الإلهي العامِل بشكلٍ سليم؟ من الصعب القول.

اعترفَ بلانتينغا أنّه رغم أنّ نشاط الحسّ الإلهي قد يحثّنا على اعتبار الإيمان بالله بطريقةٍ أساسية، إلا أنّ ذلك يعتمدُ على العديد من العوامل الأخرى: ثقافتنا، الإعداد والرعاية اللَّذين تلقيناهما من الأهل، المجتمعات التي تربّينا فيها، والمساهمات التي قدّمتها الكنائس. يعتمدُ العمل السليم للحسّ الإلهي أيضًا على خلوّ العوامل التي تقمعُ عمله السليم كتوجُّه الإرادة بنحوٍ مُخالفٍ لله وللأمور المتعلِّقة به. نظرًا إلى جميع هذه العوامل الأخرى، قد يتساءلُ الإنسان كيف يكونُ هذا الاعتقاد الأساسي بوجود الله فعلًا «أساسيًا». إذا ساهمتْ جميعُ هذه العوامل في إنتاج الاعتقاد بالله الذي يحمله الفرد، ألن يكون دقيقًا نسبُه بدرجةٍ أكبر إلى التعليم والتثاقف بدلًا من العملية الغامضة لحسٍّ إلهيٍ ما؟ هل يبقى اعتقادُ الإنسان بالله أساسيًا إذا كان خاضعًا لهذه التأثيرات وغيرها من التأثيرات، أو هل أنّه -بدلًا من ذلك- اعتقادٌ يتمُّ التوصُّل إليه ليسَ من خلال الاستدلال الاستنتاجي الذي تمَّ التدرُّب عليه جهرًا بل من خلال نوعٍ من الاستدلال التركيبي الضمنيّ الذي يحصلُ على امتداد فترةٍ زمنية؟

أرى هنا أنّ بلانتينغا قد يُقدِّم الجواب عبر الإشارة بأنّ الحسّ الإلهي في هذا الصدد ليسَ مُختلفًا من حيث النوع (ولكن ربما من حيث الدرجة) مع باقي قوانا المعرفية. قوانا المعرفية الإدراكية والذاكرتية هي، كما الحسّ الإلهي، خاضِعة أيضًا

للتمرين والتثاقُف والرعاية. تؤكِّدُ جُملةٌ من الدراسات مثلًا على قوّة التمرين والتوقُّع لتشكيل الرؤية. الذاكرة أيضًا عُرضة للـ«إيحائية الاستجوابية»، كما يحصلُ مثلًا حينما تستجوبُ الشرطة الشهود طارحةً عليهم أسئلةً من قبيل: «وهل كان الرجل الأسود الذي رأيتموه في المتجر طويلًا؟»[١]. يُمكن أن تُستثار الذكريات الكاذبة أيضًا، وهو ما تشهدُ عليه «تمرينات الاسترشاد الصوري» الذائعة الصيت التي أُجريَت من عدّة سنوات ونجمتْ عن إقدام البعض على اتّهام والديهم زورًا بتعريضهم للتحرُّش الجنسي وهم صغار. تقديماتُ الذاكرة هي عُرضة للتشكُّل على يد بعض القوى نفسها التي تُشكِّلُ الحسَّ الإلهي، إلا أنّ كثيرًا من إنتاجاتها ليست أقل أساسيةً بسبب ذلك.

ثمّة اعتراض مُتّصل يتناولُ إقرارَ بلانتينغا أنّ التسويغ الذي يمنحه الحسّ الإلهي هو قابلٌ للإبطال. قد يحصلُ هذا بطريقَين. يُمكن أن يُقوَّض إيمان الإنسان بالله إذا امتلك الفرد أسبابًا للاعتقاد بأنّ حِسَّه الإلهي لا يعملُ بشكلٍ سليم في بيئةٍ إبستميّة مُلائمة. يُمكن أيضًا أن يُنقَض إيمان الإنسان بالله عبر حجّةٍ فلسفية كإشكالية وقوع المعاناة في العالَم. في مقابل هذين النوعين من الاعتراضات، يُحاولُ المؤمن تقديمَ عوامل هازِمة للعوامل الهازِمة المحتملة، أي حججًا تُبطِلُ قوّةَ النوعين من الانتقادات. كثيرًا ما تكونُ هذه الاحتجاجات تقنية للغاية وتفصيلية.

قد يعترضُ أحدهم أنّه من خلال توظيف دفاعٍ مُفصَّل ضدّ حجّةٍ من قبيل إشكالية المعاناة، فلا يُعدّ اعتقادي بالله بعد ذلك أساسيًا، بل يعتمدُ الآن على جميع الأسباب التي أطرحها للدفاع عن مُعتقدي ضدّ هذا الاتّهام وغيره من الاتّهامات.

---

١. راجع: Schacter, The Seven Sins of Memory, esp. chs 5, 6.

وفقًا لفيليب كوين، هذا بالضبط هو المأزق الذي يُواجهه أغلب المؤمنين البالغين المتمرِّسين في ثقافتنا فهم مُدركون بشكلٍ مُؤلم للغاية لوجود مجموعةٍ كبيرةٍ من العوامل المتحدية للإيمان بالله، من بينها إشكالية الشرّ والانتقادات الماركسية الموجّهة ضدّ الدِّين والاعتراضات المنبعِثة عن بعض أصحاب النظرية التطوُّرية وما إلى ذلك. يشكُّ كوين بتموضع أيٍّ من المؤمنين في موقعٍ مؤاتٍ يُتيحُ لهم إلحاق الهزيمة بجميع الاعتراضات المحشودة ضدّ الإيمان بالله. حتّى ولو كانوا في موقعٍ مؤات، فإنّ جهودهم الدفاعية سوف تُظهِرُ أنّ مكانة إيمانهم بالله قد خضعت للانتقال؛ بدلًا من اعتبارها أساسية تُصبِحُ الآن مُستندة إلى مجموعةٍ من الاحتجاجات والدفاعات التي تُوظَّفُ للذبّ عن الإيمان بالله.

«إنّني أصرّ... أنّ العديد، وربما أغلب، المؤمنين البالغين المتمرّسين فكريًا في ثقافتنا ينبغي -لكي يكون اعتقادهم بالله عقلانيًّا- أن يملكوا دليلًا كليًّا عن الطابع العقلاني للاعتقاد الإيماني الذي يتضمّنُ دفاعاتٍ ضدّ العوامل الهازِمة التي تملكُ دعمًا كبيرًا للغاية»[1].

ولكن هل يُستتبع أنّه إذا قدّمتُ أسبابًا لمجابهة الاعتراضات الموجَّهة ضدّ اعتقادي بالله، أن هذا الاعتقاد ما عادَ أساسيًا بالنسبة إليّ؟ كما يُشيرُ بلانتينغا، فإنّ درْأ الانتقادات الموجَّهة ضدّ إيمان الفرد لا يعني تقديم الأدلّة لدعم الإيمان. قد ينخرطُ الإنسان في مهمة علم الدفاع الديني الهدّام[2] -كما يُسمّى أحيانًا- أي مهمة إلحاق الهزيمة بالاعتراضات الموجَّهة ضدّ قابلية تبرير الاعتقاد الديني، ومع ذلك لا يؤسِّس اعتقادَه الشخصيّ على الاحتجاج.

يُمكن أن يكون قد خطَرَ في عقول القرّاء التساؤل حول ما إذا كانت

1. Quinn, "In Search of the Foundations of Theism", 484.

2. negative apologetics

إستراتيجية بلانتينغا -المتمثِّلة باعتبار الاعتقاد الإيماني أساسيًا- غير قابلة للتكيُّف مع السياقات الدينية الأخرى. إذا كان المؤمنون مُسوَّغين في اعتبار الإيمان بالله هو النتيجة الأساسية للحسّ الإلهي، فلماذا إذًا هذا ليس هو النموذج الأساسي لتأمين التسويغ الإبستمي المتاح لممارسي الأديان الأخرى؟ وألا يمكن أن تكون هذه الأديان الأخرى غير مُتوافِقة مع الإيمان بالله؟ على سبيل المثال، لماذا لا يُمكن لمشركٍ هندوسي أن يُطوِّر بيانًا حولَ الاعتقاد الدينيّ المسوَّغ الذي يلجأ إلى «الحسّ البراهماني»؟ ما الذي يمنعُ القائل بوحدة الوجود من اعتبار الإيمان بغايا أساسيًا بناءً على التجارب الرفيعة لقوى الطبيعة؟ وجّه مايكل مارتن هذا الاعتراض بالذات إلى موقف بلانتينغا، وقد احتجَّ أنّ نموذج بلانتينغا لتبرير المعتقدات المسيحية قد يبدو أنّه يسمحُ لأيّ اعتقادٍ مُطلقًا أن يُصبح أساسيًا من وجهة نظر جماعةٍ فكريةٍ ما. رُغم أنّه لا يتحتّمُ على أنصار الإبستمولوجيا المستَصلَحَة أن يقبلوا بأنّ المعتقدات الشعوذية هي منطقية، إلا أنّه قد يكون بوسع أتباع مذهب الشعوذة أن يدّعوا أنّه إلى الحدّ الذي تكونُ هذه المعتقدات الشعوذية أساسيةً في مجتمع مذهب الشعوذة فإنّها منطقية، وإضافة إلى ذلك، أن يدّعوا أنّ الفكر المستَصْلَح هو غير منطقي في هذا المجتمع. بالفعل، مُقترح بلانتينغا قد يؤدّي إلى أن تدّعي العديد من المجتمعات المختلفة بشكلٍ مشروع أنّ معتقداتها الأساسية منطقية وأنّ هذه المعتقدات تتعارضُ مع المعتقدات الأساسية للمجتمعات الأخرى[1] (مارتن ١٩٩٠).

يقتضي ردُّ بلانتينغا أن يقومَ بلانتينغا أولًا بإزالة الغموض عن مُصطلحات مارتن. يهتمُّ بلانتينغا بشكل التقييم الإبستميّ الإيجابي الذي يُسمّيه «التسويغ[2]»

1. Martin, Atheism: A Philosophical Justification, 272.

2. warrant

وليس العقلانيــة. إذا كانت تُمثِّلُ العقلانية مجرّد مســألة العيش ضمن الأضواء الفكرية الشخصية بأفضل طريقةٍ يستطيعها المرء، أو تُمثِّلُ الكينونة ضمن الحقوق الفكرية للفرد في الاعتقاد بما يعتقــده، أو تُمثِّلُ مُصطلحًا واهيًا مُماثلًا من التقييم الإبستميّ، فلا جدال إذًا لأنّ بلانتينغا يُوافقُ على إمكانية أن يكون أتباع الشعوذة عقلانيّين بهذه المعاني الواهية. أمّا التسويغ، فهو يُمنَح لتلك المعتقدات التي تنشأ من القابليات العامِلة بشــكلٍ ســليم، بكلمــةٍ أخرى من القابليــات المؤدّية إلى الحقيقة والعامِلة في بيئةٍ مُلائِمة، ويُنكرُ بلانتينغا أن يُلبّي أتباع مذهب الشــعوذة هــذا الشرط. يقولُ بلانتينغا لكي يتمتّع اعتراضُ مارتن بالقوة، ينبغي أن يُصاغ بشكلٍ أقرب إلى التالي:

«إذا كان الادّعاء الذي يُجريه مُناصِر الإبســتمولوجيا المســتَصلَحَة -أي أنّ الاعتقاد بالله هو أســاسيٌ من جهة التسويغ- يملكُ التسويغ، إذًا فيما يتعلّق بأيّ فرضية «ف» (بغــضِّ النظر عن مدى غرابتها) التي تقبلهــا جماعةٌ ما، إذا ادّعى خبراءُ الإبســتمولوجيا في تلك الجماعة أنّ «ف» هي أساســية من جهة التسويغ فإنّ ادّعائهم بحدّ ذاته يملكُ التسويغ»[1].

التســويغ، كما رأينــا، هو مصطلحٌ أقــوى بكثير يتعلّقُ بالتقييم الإبســتمي ويقتضي أن تتشــكّل المعتقدات التي تحظى به عــلى يد قابليات تؤدّي إلى الحقيقة وتعملُ بنحوٍ ســليم في بيئةٍ مُناسِبة. ولكن من الواضح أنّ المعتقدات الشعوذية، وعبّاد آلهــة جبل أوليمبوس[2]، والعُبّاد المنتمين إلى جماعة «باب الســماء[3]» (التي أقدمَ أفرادُها على ارتكاب الانتحار الجماعي بهدف العبور على متن سفينةٍ فضائية

1. Plantinga, Warranted Christian Belief, 347.

2. Mount Olympus

3. Heaven's Gate

تقتفي أثر مُذنَّب هيل-بوب[1]) ليستْ أساسية من حيث التسويغ. ولكن ماذا عن الأديان الإيمانية الأخرى؟ ما الذي يمنعها من الادّعاء بأنّ مُعتقداتها الجوهرية هي أساسية ومُسوَّغة؟ يعترفُ بلانتينغا هنا أنّ نموذجه الرامي إلى تأمين التسويغ للإيمان بالله (وغيره من المعتقدات المسيحية) يُمكن أن ينطبقَ على اليهودية والإسلام وبعض الأنواع الإيمانية من الهندوسية وحتّى بعض أنواع الأديان الأمريكية-الهندية.

ولكن كيف يعلمُ بلانتينغا أنّ دينَه مُسوَّغ؟ ما هي الاحتجاجات التي يُقدِّمها لكي يدعمَ الادّعاء بأنّ مُعتقداته الإيمانية قد تشكّلتْ عبر قابلياتٍ مؤدِّية إلى الحقيقة وعامِلة بنحوٍ سليم في بيئةٍ مُناسِبة لتلك القابليات؟ الجوابُ القصير هو: لا احتجاج على الإطلاق. تذكّرْ أنّ البيانات الخارجيانية حول التبرير تُنكِرُ أنّه -كي تكونَ المعتقدات مُسوَّغة- ينبغي أن يكون الفردُ قادرًا على الوصول إلى أُسُس مُعتقداته الشخصية ومُلاحظة كيف تدعمُ صحّة الاعتقاد المقصود. يكفي للتبرير أن تكون المعتقدات بالفعل مُنتَجَة بشكلٍ موثوق وليس أن يكون الفردُ مُدركًا لهذا، بل ولا حتّى أن يكون الفرد قادرًا على تقديم حُجّةٍ بأنّها مُنتَجة على هذا النحو. يعترفُ بلانتينغا بنحوٍ صريح أنّه لم يُظهِر أنّ نموذجه حول المعتقدات الدينية الأساسية هو صحيح، وبالتالي لم يُظهِر أنّ مُعتقداته الإيمانية هي مُسوَّغة. ادّعاؤه مشروط وبالتالي أكثر تواضعًا: إذا كان الاعتقاد الإيماني صحيحًا فإنّ النموذج الذي يتضمّنُ الحسَّ الإلهي (أو شيئًا قريبًا منه بنحوٍ وثيق) هو صحيحٌ والمعتقدات الإيمانية تملكُ التسويغ[2]. إذا كان هذا صحيحًا، يقول بلانتينغا إنّ ذلك يستتبعُ عدم وجود اعتراضات من حيث المبدأ[3] على الإيمان

1. Hale- Bopp

2. Plantinga, Warranted Christian Belief, 168-69.

3. de jure objections

بـالله (الاعتراضات التي تتّهمُ الإيمان بالله بأنّه يفتقرُ إلى كلّ الدعم الإبستمي) مستقلّة عن الاعتراضات في الواقع[1] (الاعتراضات التي تزعمُ أن تُظهر أنّ الإيمان باطل). يقولُ بلانتينغا إنّه إذا أردتَ أن تُظهر أنّ الإيمان بالإله يفتقرُ إلى التسويغ، ينبغي أن تُظهر أنّه باطل، إلا إنّه يعتقدُ أن لم يقم أحدٌ بذلك.

قد يجدُ العديد من القرّاء (خصوصًا المؤمنون بالله) أنّه من غير المرضي أن يُقال لهم بأنّ اعتقادهم بالله هو مُسوّغٌ إذا كان صحيحًا. بالطبع، السؤال الرئيسي الذي يُريدُ المشاركون في هذا الجدال أن تتمّ الإجابة عليه هو هذا بالذات: «هل القضية هي، أم أنّها ليست هي، أنّ الله موجود؟» نموذج تأمين التسويغ للاعتقاد الإيماني الذي يعتمدُ على الحسّ الإلهي لا يُحاولُ أن يُثبت احتجاجيًا أنّ الله موجود. من المستغرب أن بلانتينغا كتب في أحد الهوامش: «لا يُستتبع أن يعجزَ الاعتقادُ الإيماني عن نيل التسويغ من خلال الاحتجاج (انطلاقًا) من مُعتقدات أُخرى؛ ولا يُستتبع أن يكون اللاهوت الطبيعي والاحتجاج الإيماني غير الرسمي بنحوٍ أكبر خاليًا من القيمة في الحياة الفكرية والروحية للمؤمن»[2]. ولكن إذا كان عُلماء اللاهوت الطبيعي من أمثال أكويناس صائبين في الادّعاء بأنّ أغلب الناس هم عاجزون عن إنتاج هكذا احتجاجات، فإذا أُريدَ أن يكونوا مُبرّرين أو مُسوَّغين في مُعتقداتهم ينبغي أن يؤمنّوها بطريقةٍ أخرى. بيانُ بلانتينغا عن الاعتقاد الإيماني الأساسي هو أحدُ هذه البدائل.

1. de facto objections

2. Ibid, 179, n.16.

المصادر

1. Bonjour, Laurence, Epistemology: Classic Problems and Contemporary Responses, 2nd edn, Lanham, MD: Rowman & Littlefield, 2009.
2. Goldman, Alvin, "Internalism Exposed", Journal of Philosophy, 96, (6), (June 1999): 271-93.
3. ———, "What is Justified Belief ", in Justification and Knowledge, George Pappas (ed.), 1-24, Dordrecht: Reidel, 1979.
4. Kant, I., The Critique of Pure Reason, N. Kemp Smith (trans.). New York: St Martin's Press, 1961.
5. Kornblith, Hilary, Hilary, Epistemology: Internalism and Externalism, Oxford: Blackwell, 2001.
6. Martin, M., Atheism: A Philosophical Justification, Philadelphia, PA: Temple University Press, 1990.
7. Plantinga, A., "Reason and Belief in God", In Faith and Rationality: Reason and Belief in God, A. Plantinga & N. Wolterstorff (eds), Grand Rapids, MI: Eerdmans, (1983): 16-93.
8. ———, Warrant and Proper Function, Oxford: Oxford University Press, 1993.
9. Plantinga, Alvin, "Foundations of Theism: A Reply", Faith and Philosophy, 3, (3), (1986): 298-313.
10. ———, Warrant and Proper Function, Oxford: Oxford University Press, 1993.
11. Quinn, P. L., "In Search of the Foundations of Theism", Faith and Philosophy, 2, (4, 1985): 469-486.
12. Schacter, D., The Seven Sins of Memory, Boston, MA: Houghton Mifflin, 2001.
13. Sosa, Ernest, A Virtue Epistemology, (Oxford: Oxford University Press, 2007).